﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنبياء:46]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

انتقالٌ من إنذار المشركين بعذابِ الـدّنـيـا إلى إنذارهم بعذابِ الآخرة

بعد أنْ أخبرَ تعالى في الآية السّابقة عن حالِ المنذَرين الذين صَمّوا آذانهم عن سماعِ ما أُنذروا به، بيّنَ تعالى في هذه الآية أنّ حالهم سيتغيّر إلى أنْ يَصيروا بحيث إذا شاهدوا اليسيرَ ممّا أُنذروا به، أو نالهم شيءٌ منه – ولو كان يسيرًا – نادَوا على أنفسهم بالهلاك، وأقرّوا بأنّهم كانوا ظالمين، فقال: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾[1]، وهذا انتقالٌ من إنذارهم بعذابِ الدّنيا إلى إنذارهم بعذابِ الآخرة[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَّسَّتْهُمْ﴾: (مسّ) أصلٌ واحدٌ يدلّ على جَسِّ الشَّيء باليد[3]، والمسُّ: مباشرةُ الجسم، والمسُّ يُقال فيما يكون منه إدراكٌ بحاسّةِ اللّمسِ[4]، وحقيقةُ المسّ: وضعُ اليدِ على شيءٍ ليُعرفَ وجودُه، أو ليُخْتَبَرَ حالُه، ثم يُسمّى كلُّ ما يصلُ إلى الشّيءِ ماسًّا على سبيلِ التّشبيه، فيُقال: فلانٌ مَسّهُ التّعبُ والنَّصبُ، وقد استُعمِل المسّ في أكثر ما ورَدَ في القرآن الكريم بمعنى الإصابةِ بمكروهٍ، وإيقاعِ الضُّرِّ ونحوه، ويُكنّى أيضًا بالمسّ عن الجماع، وعن الجنون[5]، ومعنى ﴿مَّسَّتْهُمْ﴾ في الآية: أصابتهم إصابةً حقيقيةً[6]، والمعنى ولئن أصابهم عذابٌ خفيف[7].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 148، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 434 - 435.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 79.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مس).
(4) الرّاغب، المفردات: (مسس)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 4/ 91.
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مس).
(6) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4873.
(7) حاشية الصّاوي، ص: 1201.

2) ﴿نَفْحَةٌ﴾: (نفح) أصلٌ يَدُلُّ على انْدِفاعِ الشَّيْءِ أوْ رَفْعِهِ، ونَفَحَتْ رائِحَةُ الطّيبِ نَفْحًا: انْتَشَرَتْ وانْدَفَعَتْ، ونَفَحَتِ الرّيحُ: هَبَّتْ[1]، أي: نَسَمَت وتَحرَّكَ أوائِلُها، والنَّفْحَةُ: ما أصابَك من دُفْعَةِ البرد، ونَفَحَ فُلانًا بشيْءٍ: أعْطاهُ، ونفحهُ بالسّيف: ضربهُ ضربةً خفيفة، والنَّفْحُ: الضَّرْبُ والرَّميُ، والنَّفْحَةُ من العَذاب: القِطْعَةُ والدُّفْعَةُ مِنْهُ[2]، والمرادُ بالنَّفْحَة في الآية: النّصيبُ والحظُّ، أي: أصابتهم عقوبة[3]، أو طائفة أو دُفْعَةٌ يسيرة أو طَرَفٌ أو أدنى شيء من عذاب اللّه[4]، والمعنى: ولئن مسّهم شيءٌ قليلٌ من عذابِ اللّه كالرائحةِ من الشّيء دون جسمه[5].

3) ﴿يَوَيْلَنَآ﴾: ويلٌ: كلمةٌ مثل ويحٍ، إلا أنَّها كلمةُ عذابٍ[6]، والويلُ: القُبوحُ والتَّعسُ، وقد تُستعملُ على التّحسّر[7]، وهي كلمةٌ للدُّعاء بالهلاكِ والعذابِ على من وقعَ في هَلَكةٍ يستحقُّها بقصدِ التّهديدِ والتّحذيرِ[8]، وكلُّ مَن وقَع في هَلَكةٍ دَعا بالويْل، ومعنى ﴿يَوَيْلَنَآ﴾: موافقٌ للمعنى اللّغويّ، فهو دعاءٌ على أنفسهم بالويلِ والهلاكِ وذلك على سبيل التّفجّع والتّحسّر[9].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تصويرٌ لندمِ الكافرين وعويلهم لأدنى إصابةٍ من عذابِ الله

يُقْسِمُ مُنْزِلُ الكتاب سبحانه بأنّه لئن أصابَ هؤلاء المستعجلين بالعذابِ أقلُّ شيءٍ من عذابِ ربّك يا محمّد بتكذيبهم لك وكفرهم

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفح).
(2) ابن سِيْدَةَ، المحكم، والزَّبِيدِيّ، تاج العروس: (نفح).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 450.
(4) الماتُرِيدِيّ، تأويلات أهل السنة: 7/ 349، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 192، والنَّسَفِيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 406.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 148.
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (ويل).
(7) الرّاغب، المفردات: (ويل)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 4/ 346.
(8) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (ويل).
(9) سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 216.

بك لَيَعْلَمُنَّ حينئذ عاقبة تكذيبهم لك، وليعترفُنّ على أنفسهم بنعمةِ اللّه وإحسانه إليهم وكفرانهم أياديَه عندهم، وليقولُنّ نادمينَ مُتحَسِّرينَ يا ويلنا ويا هلاكنا إنّا كنّا ظالمين في عبادتنا الآلهةَ والأنداد، وتركنا عبادةَ اللّه الذي خلقَنا وأنعمَ علينا، ووضَعْنا العبادةَ في غير موضعها[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة العطف بالواو في قوله ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه جملةُ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ﴾، والخطابُ للنّبيّ ﷺ، أي: أنذِرْهم بأنّهم سيندمون عندما ينالهم أوّلُ العذابِ في الآخرة، وفي هذا انْتِقالٌ من إنذارهم بعذابِ الدّنيا إلى إنذارهم بعذابِ الآخرة[2].

انتقالٌ من إنذار الكافرين بعذابِ الدّنيا إلى إنذارهم بعذابِ الآخرة

دلالة اللّام الموطِّئة للقسم:

أكَّدَ البيانُ القرآنيُّ جوابَ الشَّرط في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ﴾ باللّام الموطّئة للقسَم المحذوفِ والمُضمَر قبلَها، وتقديره: (واللّه لَئِنْ مسّتهم نفحةٌ من عذابِ ربّك ليقولُنّ)، أي: غرضُ لامِ القسم تأكيدُ الجواب، وهو تأكيدُ وقوعِ إقرارهم باستحقاقهم العذابَ، ودعائهم على أنفسهم بالويلِ والهلاكِ واعترافهم بالظُّلم عند ملاقاتهم أدنى عذابٍ من عذابِ الآخرة، بما يدلُّ على تحقيقِ وقوعِ الجزاء عليهم وشدّته[3].

تأكيدُ إقرار المشركين باستحقاقهم العذابَ دليلٌ على تحقُّقِ وقوعِه عليهم

دلالةُ التَّعبير بالجملة الشّرطيّة:

دَلّتِ الجملةُ الشَّرطيّةُ ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 450.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 79.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 79.

سرعةُ إقرار المشركين باستحقاقهم العذابَ عند مَجيء دُفْعَةٍ يسيرةٍ من العذابِ

لَيَقُولُنَّ﴾ على اتّصالِ تعلّق حصولِ الجوابِ بحصولِ الشّرطِ وتلازمِهما، أي: تعلّقِ حصولِ قولهم وإقرارهم باستحقاقهم العذابَ، وتَعَجُّبِهم مِنْ سُوءِ حالِهم بحصولِ مَسّ رائحةٍ يسيرةٍ من عذابٍ قليلٍ مَرّةً واحدة، وتلازمِ الأمرَين، بما يدلُّ على سرعة تأثّرِهم من مجيءِ دُفْعَةٍ يسيرةٍ من العذابِ.

نكتة التّعبير بـ (إنْ) الشَّرطيّة:

التّقليلُ المتضمَّنُ في الآية يفيدُ المبالغةَ في تهويل عذابِ الآخرة

عبّر البيانُ القرآنيُّ في الجملة الشَّرطيّة ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ﴾ بحرفِ الشَّرط (إنْ) وهي الّتي لا يكون التّعليقُ بها إلا في مُبهَم مشكوكٍ فيه[1]؛ لمناسبةِ هذا التّشكيكِ لسياقِ الآيةِ المتضمِّنِ للتقليلِ؛ سواءٌ في لفظةِ المَسّ أو حقيقةِ النّفحةِ وبنائِها وتنكيرها وغيرِ ذلك، ممّا يفيد المبالغةَ في تهويلِ عذاب الآخرة[2]، وللدّلالةِ على أنّ فعلَ الشّرط في الجملة ﴿مَّسَّتْهُمْ﴾ لا يكون ماضيًا (لفظًا ومعنى)، وإنّما يكون ماضيًا (لفظًا فقط) والمعنى هو المستقبل، أي: إنّ هذا الفعلَ سيكون يومَ القيامةِ يومَ يَمَسُّهُمُ العذابُ، وأمّا إنْ كان المقصودُ من نفحةِ العذابِ ما أصابَ قريشًا من عذابِ الجوع - كما يرى بعض المفسّرين كمكّيٍّ بنِ أبي طالب وأبي حيّانَ[3] - ؛ فيكون استعمالُ (إنْ) للإشارةِ إلى عدمِ صِدْقِهم في إقرارهم بظلمهم.

إيثارُ لفظ المسّ في قوله ﴿مَّسَّتْهُمْ﴾:

أقلُّ مسٍّ يكفي الكافرين ليُذْعِنوا

آثرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ ﴿مَّسَّتْهُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ﴾، وهو اللَّمسُ الخفيفُ أي أخفُّ اللّمسِ، وأَسْنَدَهُ إلى النَّفحة دون غيره من الألفاظ الدّالّة على القوّة فوق المسّ كالأخذِ والنُّزولِ واللّمسِ والإصابةِ وغير ذلك[4]؛ مناسبةً للسّياقِ الذي استعملَ لفظَ

(1) ابن نور الدّين، مصابيح المغاني في حروف المعاني، ص: 84، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/ 309.
(2) النُّورْسِيّ، إشارات الإعجاز في مظانّ الإيجاز، ص: 45.
(3) مَكّيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 7/ 4762، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 435.
(4) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 531.

﴿نَفْحَةٌ﴾ بجوهرها وبنائها وتنكيرها؛ لتحقيقِ المبالغةِ في تهويلِ العذابِ المستفادِ من التّقليل، وبيانِ سرعةِ تأثّرِهم من مجيءِ دُفْعَةٍ يسيرةٍ من العذاب إثرَ بيانِ عدمِ تأثُّرِهم من مجيء خبرِه، أي: وباللّه لَئِنْ أصابهم أدنى إصابةٍ أو أدنى شيءٍ من عذابِه تعالى[1]؛ لَيُذْعِنُنَّ ويَتَطامَنُنَّ ويُعْلِنُنَّ ذُلَّهم وخضوعَهم، والإقرارَ على أنفسهم بأنّهم تصامّوا وأعرضوا، وقد رمقَ المتنبّي سماءَ هذه المبالغةِ فقال في وصف قوم جبناء:

وضاقتِ الأرضُ حتى كادَ هاربهم *** إذا رأى غيرَ شيءٍ ظنَّه رَجُلًا[2].

سرّ التّعبير بفعل المسّ ماضيًا:

تحقُّقُ وقوعِ إصابتِهم بالعذاب يُنبئُ بتحقُّقِ خَوفِهم وإقرارهم بظلمهم

مجيءُ الفعلِ بصيغةِ الماضي الّتي تدلّ على الوقوع في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ﴾؛ للدّلالة على زيادةِ تأكيدِ تحقُّقِ وقوعِ إصابتهم بالعذاب، ومِنْ ثَمَّ تحقُّقِ الخوفِ منهم، والإقرار بظلمهم، والدّعاءِ على أنفسهم بالويل، وهذا يتضمّنُ تخويفًا لهم، هذا إنْ كانَ المقصودُ من العذابِ عذابَ الآخرة، وأمّا إنْ كان المقصودُ ما أصابَ قريشًا من عذابِ الجوع فتكون النَّفحةُ قد حَصَلَتْ لَمّا دعا النّبيّ ﷺ على كفّارِ قُرَيشٍ فقال: "اللّهمَّ اجْعَلْها عليهم سِنينَ كَسِنيّ يوسُفَ"[3]، فأخذَتْهُم سَنَةٌ أكلوا فيها العِظامَ والمَيْتَةَ مِنَ الجَهْد؛ حتى جعلَ أحدُهم يرى بينه وبين السَّماءِ كهيْئَةِ الدُّخانِ من الجوع، ويكون استعمالُ صيغة الماضي لكونِ هذا الحدثِ - أي مَسِّهم نفحةُ العذاب - قد وقَع؛ إذْ هو حكايةٌ عن أحداثٍ مضتْ.

سرّ التّعبير بـ ﴿نَفْحَةٌ﴾ مادّةً وبِناءً:

نفحةٌ واحدةٌ لا ثاني لها تكفي لتشتيتِ أمرهم وتَوْهينِ كيانِهم

عبّر البيانُ الإلهيّ بمفردةِ ﴿نَفْحَةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن

(1) البَيْضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 53، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 70، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 79، والقونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 531.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 322.

(3) صحيح البُخاريّ، كتاب: الدّعوات، باب الدّعاء على المشركين، الحديث رقم: (6393).

﴿مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾؛ للمبالغةِ في الدّلالةِ على قلّةِ هذا العذابِ الّذي يجعلهم يسارعون في الإقرارِ والنّدمِ والدّعاء على أنفسهم بالهلاكِ يوم القيامة، بما يدلُّ على شدّته؛ لأنّ النّفح في معنى القلّة والنّزارة، فإنّ أصله هبوبُ رائحةِ الشّيء، ويُقال نَفَحَتْه الدّابةُ: ضربَتْه بحدِّ حافرها، ونفَحَهُ بعطيّةٍ: أعطاه يسيرًا، وهي أهونُ شيءٍ فيه وأقلُّه، وهو بالنِّسبةِ للعذابِ أشبهُ بالرحمة، فكيف إذا وقعَ بهم العذابُ نفسُه لا نفحةٌ منه؟[1]، ولِأنّ بناء لفظ ﴿نَفْحَةٌ﴾ على هيأةِ المَرّة، وهي لأقلِّ ما ينطلقُ عليه الاسم[2]؛ فمصدرُ المَرّة يأتي على فعْلَة، أي نفحةٌ واحدةٌ لا ثانيَ لها تكفي لتشتيتِ أمرهم وتوهينِ كيانهم وتصدّعِ صفوفهم، فكيف إذا عُزّزت بثانية أو ثالثة؟[3].

وهنا تنبيهٌ هامٌّ وهو أنّ التّاء الدّالّة على المرّة الواحدة في ﴿نَفْحَةٌ﴾ لا تدخلُ على كلِّ مصدرٍ بل على المصادرِ الصّادرةِ عن الجوارحِ المُدْرِكَةِ بالحسّ نحو: قَوْمَةٌ وضَرْبةٌ وقَعْدةٌ وأكْلةٌ، وأمّا مصادر الأفعال الباطنة والخصالِ الجليلة الثّابتة نحو الصّبر والفهم والعلم فلا يُقال من ذلك علّمتُه عَلْمَةً، ولا فهَّمتُهُ فهْمَةً، ولا صَبَّرْتُهُ صَبْرَةً[4]، وفي هذا مناسَبةٌ للسّياق الّذي يُعبِّر بالمسّ، بما يدلّ على أنَّ العذابَ عذابٌ مادّيٌّ، وأنَّ إصابتَه إصابةٌ حقيقيّة[5]، لا رُوحيّةٌ فقط.

كما أنّ في التّعبيرِ بالنَّفحةِ تبكيتٌ للكافرين، يُقال: نَفَحَ الرّيحُ يَنْفُحُ نَفْحًا، وله نَفْحَةٌ طَيِّبة، أي: هُبوبٌ مِنَ الخيرِ، وقد يُسْتَعارُ ذلك للشرِّ، كما في هذه الآية[6].

فائدة تنكير ﴿نَفْحَةٌ﴾:

نكّر البيانُ القرآنيُّ لفظة ﴿نَفْحَةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾؛ إمّا لإفادةِ المبالغةِ في التّقليلِ والتّحقيرِ والتّصغير[7]؛ قال الزَّجّاج: "أي إنْ مسَّهُم

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 906.
(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 9/ 36.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 322.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 322.
(5) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4873.
(6) الرّاغب، المفردات: (نفح).
(7) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 355.

أدنى شيءٍ من العذاب"[1]؛ لأنّ النفحَ في معنى القلّة والنّزارة[2]؛ إذ هي مجرّدُ رائحةِ عذابٍ، فهي الريحُ التي تحملُ آثارَ الأشياء دون حقيقتها[3]، وإذا كان العذابُ القليلُ وهو نفحةٌ من ريحٍ فيها عذاب، كالرّائحة مِنَ الشَّيءِ دون جسمه لمّا مَسَّهُم أوّلُها جعلهم يضطربون ويهلعون ويفزعون ويسارعون إلى الإقرار بظلمهم، وينادُون على أنفسهم بالويل، فكيف بالعذابِ الكبيرِ الذي يُهلكُهم بِطَرْفةِ عينٍ فلا يدعُ لهم مجالًا للتّحسّرِ والدعاءِ بالويل، أي إنّ أثرَ العذابِ الكثير أكبرُ بِطَريقِ الأوْلى[4]، أو لإفادةِ الإبهامِ بالتّنكير ﴿نَفْحَةٌ﴾ الذي يَتْبَعُه البيان ﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾؛ ليكونَ ذلك أوقعَ في النّفس، على الرَّغْم من أنّه لو قال: (نفحةُ عذابِ رَبِّكَ) لكان أخصرَ، لكنَّه أطنبَ لهذا المعنى[5].

نفحةٌ صغيرةٌ جدًّا من عذابِ الله كافيةٌ لِأَنْ تجعلَهم ينادُونَ بالويلِ والهلاك

معنى ﴿مِّنْ﴾ في قوله ﴿مِّنْ عَذَابِ﴾ وفائدته:

حرف الجرّ ﴿مِّنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ يحتمل معنيين:

مبالغةٌ في الدّلالةِ على شدّةِ العذابِ بالتّبعيض، وتأثيرٌ على النفوسِ بالبيانِ

أحدهما: إمّا التبعيض، والمعنى: مسّتهم نفحةٌ من بعضِ عذاب ربّك، وهذا التّبعيضُ يومئُ إلى التّقليلِ الدّالِّ على تهويلِ عذابِ الله سبحانه؛ إذْ إنّ نفحةً من بعضِ العذاب جعلتهم يندمون ويقرّون ويدعون على أنفسهم بالويل، فما الظنّ بالعذاب إذن؟!.

والثاني: وإمّا البيانُ بعد الإبهام الذي أفاده التّنكير؛ ليكون في النفسِ أوقعَ[6]، وفائدةُ التّعبير بالجار والمجرور هو تقييدُ النَّفحةِ بعذابِ الله

(1) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 393.
(2) الزَّمَخْشَرِيّ، الكشّاف: 3/ 119.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 148، والشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 15/ 9552.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 80.
(5) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 531.
(6) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 531.

في الآية الكريمة، تبكيتًا للكافرين وتهكّمًا بهم[1]؛ إذ "يغلبُ استعمالها في الخير"[2]، فأصلُ النفحةِ في الخير ثمّ استعير استعماله للشَّرِّ[3].

سرّ تعريف العذاب بالإضافة في قوله ﴿عَذَابِ رَبِّكَ﴾:

نفحةٌ من عذابِ الـرّبّ الرّحيـم تـومِـئ بـشـدّةِ عـــذابِ الـــرّبّ القهّار

عرّف البيانُ القرآنيُّ لفظةَ ﴿عَذَابِ﴾ بالإضافةِ إلى لفظة ﴿رَبِّكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾؛ لإفادةِ معنى مقصودٍ من السياق كلِّه، وهو التّنبيهُ على وصفِ هذا العذاب بالقلّة والضآلة والحقارة؛ إذ لم يُضَفِ العذابُ إلى اسم دالٍّ على القهرِ والجبروت، بل أُضيفَ إلى أرَقِّ اسْمٍ دالٍّ على الشَّفقة وهو (ربّ)؛ ليُبيّن مِنْ ثَمّ أنّ المذنبين يندمون ويتأسّفون على ما عملوا عند تعرّضِهم لنفحةٍ يسيرةٍ من عذاب الربّ الرّحيم[4]، ممّا يدلّ على عِظَمِ عذابِ اللّه وشِدّته وهَولِ شأنه، وفي ذلك تخويفٌ لهم، ودفعٌ لسماعِ الحقّ الّذي جاء في وحي القرآن والانقياد له.

ثمّ إنّ إضافة (العذاب) إلى (الرّبّ) مناسبٌ لمقام التّوجيه والتّأديب والتّخويفِ للكافرين ليعودوا عن كبرهم وتصامّهم عن سماعِ الوحْي المنزَّل على المرسَل إليهم، وبخاصّةٍ أنّ السّورة مكّيّة، فالربُّ هو المربّي المؤدّب بنفحاتٍ منَ العذاب، وليس المَقامُ مَقامَ الحديث عن عذابِ انْتقامٍ مِمَّنْ طُبع على قلبِه ولا أملَ في إيمانِه.

إيثارُ لفظِ الرّبوبيّة في قوله تعالى ﴿رَبِّكَ﴾:

عـــدمُ مـراعـاةِ الـكـافـريـن لمقامِ الرّبوبيّة إشارةٌ إلى عِلّيّةِ استحقاقهم شِدّة العذاب

آثرَ البيانُ القرآنيُّ ذِكْرَ لفظِ الرّبوبيّةِ في قوله تعالى: ﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ ولم يقل: (من عذاب اللّه)؛ لكونه أنسبَ لمقامِ شدّةِ ما يُلاقونه هنا؛ لأنّ فيه تنبيهًا على أنّهم لم يراعوا مقتضى الرّبوبيّة فوقعوا في هذه الشّدّة، كما أنّ في إيثاره إشارةً إلى شدّةِ استحقاقهم

(1) أبو موسى، خصائص التّراكيب، ص: 217.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 906.
(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 4/ 201.
(4) مصطفى مُسْلِم، مباحث في إعجاز القرآن، ص: 136.

لهذا العذاب، وإلى تبكيتهم بوقوعه عليهم؛ لأنّ في الرّبوبيّة معنى الرَّحمة والتَّربية والإشعارِ باللُّطفِ والإحسانِ والعطاء؛ فاللّهُ مُرَبٍّ لكلِّ مخلوقٍ بما عَمَّهُ به مِن أفضالِه، وناظرٌ في مصالحهم، ولا يُظلَم في ملكوته أحدٌ، قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة:7 - 8]، ومع ذلك استحقّوا عذابه بما يدلّ على شدّةِ تصامّهم عن الحقّ وكفرهم به.

نكتةُ إضافةِ لفظِ (ربّ) إلى ضمير النَّبيِّ ﴿رَبِّكَ﴾:

في غمرةِ تهديدِ الكافرين تأتي البُشرى بالنَّصرِ للنّبيّ والمؤمنين

أضافَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ (ربّ) في قوله تعالى: ﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ إلى كافِ الخطاب الّتي ترجع إلى النَّبيِّ ﷺ؛ لأنّ الخطابَ في سياقِ الآيات موجّهٌ له ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ﴾، وللتّنبيه إلى ما يريده اللّهُ بالنّبيّ ﷺ منَ التَّشريفِ والإكرام، وتحقيقِ الأمانِ له بالتّدبير له، أي: المالكُ والنّاظرُ والمدبّر لأمرك "المحسنُ إليك بنصركَ عليهم"[1]، وذلك في ظلّ الحديثِ عن إعراضِ الكافرين، وتعنّتهم على الرَّغم من إقامةِ الحججِ عليهم، والنّكتةُ هنا أنّه في غمرةِ التَّهديدِ والوعيدِ والتَّبكيتِ للكافرين المعرضينَ عن إنذارِ النّبيّ لهم بالقرآن وما تضمّنه من وعيدٍ لهم بالعذاب يكون التَّطمينُ والتَّسليةُ بالتَّأييدِ والنَّصرِ والتَّدبيرِ للنَّبيِّ ﷺ.

نكتةُ توكيدِ فعلِ القولِ باللّام وبنُونِ التّوكيد الثّقيلة في ﴿لَيَقُولُنَّ﴾:

شِـدَّةُ عـذاب النّفحة موجبةٌ سـرعـةَ الـتـأثّـر بالعذابِ وإنْ قَلَّ

أكّدَ البيانُ القرآنيُّ جوابَ القسمِ المقدَّر في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ﴾ باللّام الواقعة في جوابه، وهو قولهم ﴿يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، وزادَ فعلَ القول (يَقولُنَّ) توكيدًا بدخول نون التّوكيد الثّقيلة؛ إذ إنّها بمنزلةِ القَسَم، وبمنزلةِ تكرارِ الفعل، وتُفيدُ كذلك مع التّوكيدِ الشُّمولَ والعمومَ عندما يكونُ الكلامُ لغيرِ الواحد، أي: إنّ هذا القولَ يصدرُ من الكافرين كلِّهم.

(1) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 428.

ونكتةُ هذَين المؤكِّدَين هي الدّلالة على سرعةِ تأثّر الكافرينَ بالعذابِ القليلِ ومناداتهم بالويل والهلاك على أنفسهم، وإقرارهم بظلمهم لمّا مسَّتْهم نفحةٌ من نفحاته، بما يدلّ على شدّةِ هذا العذاب.

سرّ التّعبير بفعل القول مضارعًا في ﴿لَيَقُولُنَّ﴾:

تجدّدُ مناداتهم بالويلِ تصويرٌ لفزعهم وذهولهم عن كبرهم

أتى القرآنُ الكريم بفعلِ القول بصيغة المضارع التي تفيد التّجدّدَ والاستمرار والتّصويرَ في قوله تعالى: ﴿لَيَقُولُنَّ يَوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾؛ للدّلالة على شدّة هذا العذاب؛ إذ إنّ نفحةً صغيرةً من بعضِ عذابِ الرّبّ الرّحيم سبحانه جعلتْهم يكرّرون مناداتهم بالويل والهلاك واعترافهم بظلمهم، فما ظنّك بحالهم عند نزولِ العذابِ الشّديد من المنتقم الجبّار ﷻ القائل: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٦﴾ [الفجر:25 - 26]، وفيه كذلك تصويرٌ لفزعهم وخوفهم وذهولهم عن كبرهم، يقول البقاعي: "﴿لَيَقُولُنَّ﴾ - وقد أذهلَهم أمرُها عن نخوتهم، وشَغَلَهم قَدْرُها عن كبرهم وحَميَّتِهم - : ﴿يَوَيْلَنَآ﴾ الّذي لا نرى الآن بحضرتنا غيرَه"[1].

فائدة النّداء بـ(يا) في قوله ﴿يَوَيْلَنَآ﴾:

بُعْدُ المشركين عن رحمةِ اللهِ، ويَأْسُهم منَ النّجاةِ من العذاب

عبّر البيانُ القرآنيُّ بأسلوبِ النّداءِ بأداةٍ تُستعمل في مناداةِ البعيدِ (يا) في قوله تعالى: ﴿يَوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾؛ إشارةً إلى بُعدِ المشركين عن رحمةِ الله والنّجاةِ من العذاب، فكأنّهم نادَوا بالويْل لِما عَرَضَ لهم من الأمرِ الفظيع، والمعنى: يا ويلَنا الّذي لا نرى الآن بحضرتنا غيرَه ويا حُزْننا ويا هَلاكَنا ويا عَذابَنا احْضُرْ فهَذا وقْتُك وأوانُك[2].

دلالةُ التّعبير بالمفعول المطلَق (ويلَنا):

تأكيدُ خوفِ المشركين وفزعهم وندمهم يومَ لا ينفعهم النّدم

الويل لفظٌ دالٌّ على الشَّرِّ أو الهلاك وما يَقْرُبُ منهما من سوءِ الحالة، ولم يُسمعْ له فِعْلٌ من لفظِه فلذلك قيل هو اسمُ مصدرٍ،

(1) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 428.
(2) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 428، والزَّبِيدِيّ، تاج العروس: (ويل).

وعومِلَ معاملةَ المصادر، يُنصَبُ على المفعوليّة المطلقة، ويُرفَعُ لإفادةِ الثَّباتِ[1].

ودلالةُ التّعبير بـ ﴿يَٰوَيۡلَنَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَيَقُولُنَّ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ – سواءٌ أكانت منادى مضافًا أم مصدرًا لفعل محذوف – تأكيدٌ لخوفهم وفزعهم ممّا هم مُقبلون عليه، وحسرتُهم وندمُهم يوم لا ينفعهم النّدم؛ لأنّ لفظةَ (ويل) كلمةُ عذابٍ[2]، وتُستعمل للدّلالة على التّحسّر[3]، وللدُّعاء بالهلاك والعذاب على مَنْ وقَعَ في هَلكةٍ يَسْتَحِقُّها[4]؛ لأنّ بناءها على المصدريَّة الّتي تفيد التّأكيد.

وفيه إشارةٌ إلى أنّ "هذا القولَ صادرٌ عن مواجيدَ في النَّفس وفي الذِّهْن قبلَ أنْ يُنْطَقَ بالكلمة"[5].

بلاغةُ التّوكيد بالوصف وبـ(إنّ) وبفعل الكون الماضي ﴿كُنَّا﴾:

تأكيدُ اعترافِ المشركين بظلمهم ترفُّقٌ منهم وتذلُّلٌ لعلّ الله أنْ يكفّ عنهم

أكَّد الكافرون اعترافهم بظلمهم كما بيّنَ النَّصُّ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ بثلاثةِ مؤكّدات: وصفهم بالظُّلم ﴿ظَٰلِمِينَ﴾، وبـ (إنَّ) المؤكِّدة، وبفعل الكَونِ الماضي ﴿كُنَّا﴾ الدّالِّ على رسوخِ الظُّلم فيهم واستمرارِه[6]، وفي هذا التّأكيدِ لوقوعِ الظُّلم منهم ترفُّقٌ منهم وتذلّلٌ لَعَلَّ اللّهَ يَكُفُّ عنهم[7].

سرّ التّعبير باسم الفاعل المجموع ﴿ظَٰلِمِينَ﴾:

علّةُ إيجاب العذاب للمشركين ملازمتُهم للظُّلم والتّصامّ عن سَماعِ الحقّ

عبّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ ﴿ظَٰلِمِينَ﴾ بصيغة اسم الفاعل المفيد للثُّبوت والدّوام واللُّزوم؛ للإيذان بملازمتهم للظُّلم ومداومَتِهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 576، 13/ 183.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (ويل).
(3) الرّاغب، المفردات: (ويل)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 4/ 346.
(4) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (ويل).
(5) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 15/ 9552.
(6) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4874.
(7) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 428.

عليه، فهُم عريقون في الظُّلم وفي إعراضهم وتصامّهم[1]، وفي هذا تنبيهٌ على العلّة الّتي أوجبتْ لهم العذابَ، وهي ظلمُ الكفر[2]، وأتى به مجموعًا ﴿ظَٰلِمِينَ﴾؛ لموافقة المفردات الّتي جاءت قبلها بصيغة الجمع ﴿مَّسَّتْهُمْ﴾، ﴿يَٰوَيْلَنَآ﴾، ﴿كُنَّا﴾، وكذلك للإشارة إلى اجتماعهم على الكفر، والتَّصامِّ عن الحقّ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المسّ واللّمس والإصابة والإذاقة:

خـفّـة نـفـحـة الـعـذاب تُـنـاسِـبُ المـسَّ بوصفِه اتِّصالًا بـإحـسـاسٍ وإدراكٍ في أقلِّ درجةٍ

ذكر البيضاويُّ أنّ "المسّ اتِّصالُ الشَّيء بالبشرة بحيث تتأثّر الحاسَّةُ به، واللَّمس كالطَّلب له؛ ولذلك يقال: ألْمَسُهُ فلا أجِدُه"[3]؛ لأنَّ "اللّمس منَ الالتِماس بمعنى طلبِ شيءٍ من المُساوي، ولمّا كان الطّلب لا يستلزم وجودَ المطلوب صحّ أنْ يُقال ألْمَسُه فلا أجدُه، أي: أطلبه فلا أجده بخلاف المسّ، فإنّه منَ المُحال أنْ يُقال: أمَسُّه فلا أجد المَمسوس[4]، والمسّ يُقال فيما ينال الإنْسانَ منَ الأذى، والنّفحة مِمّا يُحِسُّه جِلْدُ الإنسان فناسبَ اللَّفظ الدّالَّ على الاتّصال بالبشرة، والمَسُّ أدنى درجاتِ الإصابة؛ إذِ الإصابةُ تأثُّرُ اللَّحم والعظم معًا[5]، لأنَّ أصلَها يدلّ على نزولِ شيء واستقرارِه قرارَه[6]، فالمسُّ أقلّ تَمَكُّنًا منَ الإصابةِ، وكأنّه من مقدّماتها، أو من أقلِّ درجاتِها، وأمّا الشّيءُ المُصيبُ لشيء، فهو متمكّن منه أو فيه، والنَّفحة مِنْ أدنى درجاتِ العذاب فناسَبَ لفظَ المسّ دونَ الإصابةِ الّتي تعني شِدّة تأثُّرِ الجسم.

وقد فرّق العسكريُّ بين اللَّمس والمسّ، فذكر أنّ اللّمسَ يكون باليد

(1) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 428.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط في التّفسير: 7/ 435.
(3) البَيْضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 1/ 90.
(4) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 3/ 449.
(5) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 3/ 450.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صوب).

خاصّةً؛ ليُعْرَفَ اللَّيْنُ من الخشونةِ، والحرارةُ من البرودةِ، والمسُّ يكون باليدِ وبالحَجَرِ وغير ذلك، ولا يقتضي أنْ يكون باليد، والمسُّ: إيصالُ الشّيءِ بالبَشَرةِ بحيثُ تتأثَّرُ الحاسّة[1].

ومن هنا فإنّ المسّ يُستعارُ للإصابةِ في إيصالِ الإدراك؛ إذ حقيقةُ المسّ: الالتِصاقُ الخفيف بين شيئين على وجه الإحساس[2]، في حين أنّ الإذاقة تُستعار للإصابةِ بجامعِ الإحساسِ في إيصالِ الإدراك؛ إذ حقيقةُ الإذاقة: إحساسُ طرفِ اللسانِ بأحوال الطُّعوم، وتكون بأقلّ ما يوجد به الطَّعم، وتُستعمل في الإعطاءِ القليل، وتشيرُ إلى الإحساسِ بأدنى إصابة، كإصابةِ اللّسانِ بالذَّوقِ، فالإذاقةُ هي الإدراكُ والإحساسُ بأدنى إصابة[3].

العذاب والعقاب:

مـقـامُ بَـذْءِ الإنـذارِ يُناسِبُ نَفْحَةَ العذابِ بِوَصْفِه أدنى صُوَرِ التَّحذيرِ والتَّخْويفِ

العِقابُ يُنْبِئُ عن اسْتِحْقاقٍ، وسُمّيَ بذلك؛ لأنَّ الفاعِلَ يَسْتَحِقُّهُ عَقيبَ فِعْلِه، فيكون العقابُ جزاءً على فِعْلِ المُعاقَب، ويجوز أنْ يكون العَذابُ مُسْتَحَقًّا وغيرَ مُستحَقٍّ، فالظّالمُ المُبتدي بالظُّلم يُعذَّبُ بدون اسْتحقاقٍ، وأصلُ العقاب التِّلْوُ، وهو تأديةُ الأوّل إلى الثّاني، يُقال: عَقَبَ الثّاني الأولَ إذا تلاه، وعِقابُ اللِّصّ بالقطعِ الّذي يَتْلو سَرقته[4]، وأصلُ العذاب الإيجاعُ والنَّكالُ والمنعُ بأيِّ وسيلةٍ كانت.

إذنْ: العِقابُ هو عذابٌ يكون عَقِبَ الذَّنْبِ، ويكون لِمُستحقِّه، في حين أنّ العذابَ قد يكون عقابًا وقد لا يكون، أي قد يكون باستحقاقٍ وقد لا يكون باستحقاق، واصطفاؤه يُناسِب الإنذار والتّخويف بنفحة العذاب لا إيقاعًا للعقوبة على كفرهم وجحودهم المُقتَضي للعذاب الأشدّ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 303.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/ 77، والشّهاب، عناية القاضي: 3/ 59، والقاسِميّ، محاسن التّأويل: 2/ 396.
(3) الفيروزآباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 3/ 23.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 239.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والثلاثون،
سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والثلاثون، سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 33 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-75-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 33 : المجلد الثالث والثلاثون، سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-75-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1130605 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»